مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

المشروع الفرنسي لترشيح الأمير عبد القادر لإمارة الشام (١٨٦٠ – ١٨٧٠)

د. عبد القادر بوتشيشة
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية العلوم الإنسانية – جامعة حسيبة بن بوعلي
الشلف – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

عرف الأمير عبد القادر الجزائري بمقاومته المسلحة للاحتلال الفرنسي، والتي دامت قرابة الخمسة عشر سنة استطاع خلال مرحلتها الأولى أن يلحق الهزائم المتكررة بقوات عدوه. لكنه وأمام اشتداد ضغط القوات الاستعمارية وتخلي القبائل في الجزائر عنه وانقلاب سلطان المغرب ضده؛ اضطر الأمير عبد القادر في النهاية إلى التسليم على أن يسمح له بالهجرة إلى الإسكندرية أو عكا. وتلقى وعدًا بذلك، ورحل على ظهر إحدى البوارج الفرنسية التي أوصلته ومرافقيه إلى ميناء طولون في فرنسا بدل المشرق. وهنا بدأت رحلة الأسر. مكث الأمير عبد القادر في الأسر ما يقارب الخمس سنوات بعدما تنكرت الحكومة الفرنسية لوعودها التي قطعتها له. وفي ١٦ أكتوبر ١٨٥٢م قام الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث بإطلاق سراحه، ثم استقبله في باريس وأكرم نزله. واتفق نابليون الثالث مع السلطان العثماني أن يقيم الأمير في أراضي الدولة العثمانية. في عام ١٨٦٠ وقعت في لبنان وسورية مواجهات عنيفة بين الدروز والموارنة تحولت إلى صدامات بين المسلمين والمسيحيين. فقام الأمير عبد القادر-باعتراف العديد من قادة تلك الفترة-بحماية وإنقاذ أكثر من أثني عشر ألف مسيحي. وهو ما دفع العديد من ملوك وقادة تلك الفترة إلى منح الأمير أوسمة شرف عرفانا له بجميل صنيعه. لقد كان لأحداث الفتنة الطائفية وتعامل مختلف الأطراف معها أثره البالغ على بلاد الشام حيث سلطت الأضواء عليها، ما جعل بعض الدول الأوروبية تطرح مشاريع للمنطقة، منها إقامة إمارة عربية في بلاد الشام يكون الأمير على رأسها. وكان أهم هذه المشاريع المشروع الفرنسي الذي طرحه نابليون الثالث الذي كان له أهدافه الاستراتيجية والاستعمارية. ولم يتجسد المشروع لأنه تقاطع مع المصالح البريطانية، والأهم لأن الأمير عبد القادر رفضه.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٧ يناير ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ٢٣ فبراير ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الأمير عبد القادر الجزائري، نابليون الثالث، فرنسا، الشام، الفتنة الطائفية، المملكة العربية.

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.324486

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد القادر بوتشيشة. "المشروع الفرنسي لترشيح الأمير عبد القادر لإمارة الشام (١٨٦٠ – ١٨٧٠)"-. دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد التاسع والخمسون؛ مارس ٢٠٢٣. ص ١٠٠ – ١١١.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: a.boutchicha@univ-chlef.dz
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

يُعدُّ الأمير عبد القادر الجزائري، من أهم الشخصيات التاريخية والوطنية التي صنعت أمجاد المقاومة الجزائرية ضد المستعمر الفرنسي، بل من أبرز رموز المقاومة ضد الاستعمار في العصر الحديث، ومن قادة العالم في التاريخ المعاصر الذين اشتهروا بعبقريتهم وحكمتهم. إن الكثير من الدراسات تناولت الأمير من حيث سيرتُه الجهادية أو من حيث بناء دولته الحديثة، والملفت للانتباه في جُل هذه الكتابات، سواء الجزائرية أو المشرقية أو الأجنبية -خاصة الفرنسية- هو تركيزها على الجوانب العسكرية في حياة الأمير، وهي المرحلة الأولى من حياته التي قضاها بالجزائر، وأهملوا المرحلة الثانية التي قضاها في المشرق.

إن هذه الدراسة المتواضعة تهدف معرفة ظروف وأسباب ترشيح الأمير عبد القادر لإمارة بلاد الشام، كما تهدف إلى الكشف عن الأهداف الحقيقية للسياسة الفرنسية في البلاد العربية عامة وبلاد الشام خاصة. ومن خلال هذه الدراسة سنحاول الإجابة على التساؤلات التالية: ما حقيقة مشروع ترشيح الأمير عبد القادر ملكا على الشام؟ ومن كان وراء هذا المشروع؟ وما هي أهدافه وأبعاده؟ وهل سعى الأمير إلى الإمارة حتى يُرشَّح لها؟ ولماذا الأمير عبد القادر الجزائري بالذات وليس شخصًا أخر من أهل البلد؟ كيف تصرف الأمير حياله؟ وما موقف الدول الفاعلة وقتئذ منه؟

١- الأمير الأسير

بعد أن احتلت الحملة الفرنسية مدينة الجزائر وما حولها- في صيف ١٨٣٠ في عهد شارل العاشر[١]، ثم في عهد ملكية يوليو (ملكية لويس فيليب)- اعتبر الضباط الفرنسيون هذه البلاد أرضا مستباحة ولجؤوا إلى اتباع سياسة النهب والسلب والتوسع[٢]، وأخذوا يشجّعون هجرة المستوطنين الأوروبيين إليها. ولكنّهم واجهوا مقاومة شعبية عنيفة اندلعت في مختلف مناطق البلاد بعد انتهاء المقاومة الرسمية باستسلام الداي حسين.

ولعل أشهر وأكبر مقاومة واجهت جحافل الجيش الفرنسي وسياسته الاستعمارية هي مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري التي امتدت من ١٨٣٢ إلى أواخر سنة ١٨٤٧ استطاع خلال مرحلتها الأولى أن يلحق الهزائم المتكررة بقوات العدو حتى اضطرت فرنسا أن تعترف بدولته ووقعت معه عدة معاهدات: معاهدة ديميشال (٢٦ فيفري ١٨٣٤) ومعاهدة التافنة ٣٠ ماي ١٨٣٧[٣]. وقد دفعت فرنسا بمزيد من القوات والقادة العسكريين المحنّكين للقضاء على دولة الأمير ومقاومته ومنهم المارشال كلوزيل[٤] والمارشال بيجو[٥] على سبيل الذكر لا الحصر. وأمام اشتداد ضغط القوات الاستعمارية وتخلي القبائل في الجزائر عنه وانقلاب سلطان المغرب ضده؛[٦] اضطر الأمير عبد القادر في النهاية إلى التفاوض مع القائد الفرنسي الجنرال لاموريسيار[٧] على التسليم على أن يسمح له بالهجرة إلى الإسكندرية أو عكا ومن أراد من أتباعه، وتلقى وعدًا بذلك فوقع على شروط التسليم في ٢٣ ديسمبر ١٨٤٧م، ورحل على ظهر إحدى البوارج الفرنسية التي أوصلته ومرافقيه بعد ثلاثة أيام الى ميناء طولون[٨]. وعندما طلب منه النزول والتوجه إلى برج لامالغ أحس الأمير بالخديعة[٩].

شعر الأمير بالخيبة لما عرف أن الفرنسيين أخلفوا وعدهم، عندها تمنى الاستشهاد في ساحة الوغى على أن يحدث له ذلك، وقد عبرّ عن أسفه هذا بهذه الكلمات «لو كنا نعلم أن الحال يؤول إلى ما إليه آل، لم نترك القتال حتى تنقضي منا الآجال»[١٠]. كانت يوميات الأمير في طولون متشابهة: يستيقظ لصلاة الفجر بعدها يذهب ليسلم على والدته ثم يمكث ساعة بين أهله ويَقدم إليه أتباعه للسلام والاطمئنان على أحواله، ثم يقضي- بعض الوقت مع ولديه محمد ومُحي الدين، وفي حدود الحادية عشر يتناول الأمير وجبة الغداء ثم يجتمع الجميع لأداء صلاة الظهر وبين الظهر والعصر- يستقبل زائريه أو يتفرغ للدراسة وبعد صلاة العصر- تقام حلقة درس يلقيها الأمير أو مصطفى بن التهامي[١١] وفي حدود الساعة السادسة يقوم الأمير بتفقد أهله وبعد صلاة المغرب تقام حلقة لتلاوة القرآن(الراتب) وبعد صلاة العشاء والعَشاء يجتمع مع خلصائه لغاية العاشرة أو الحادية عشر.[١٢] ومن الحين للآخر كانت بعض الشخصيات الرسمية تزوره لتُطمئنه على مصيره وتقدم له مبررات تأخير إطلاق سراحه. وبعد قيام ثورة فيفري ١٨٤٨ زاره السيد أوليفي[١٣] ممثلاً عن الحكومة المؤقتة مؤكدًا له نية النظام الجديد في إبقائه أسيرًا بداعي الخوف من عودته للجزائر[١٤]. وراسل الأمير الحكومة الجديدة طالبًا منها

الوفاء بالعهد وتنفيذ شروط الاتفاق الذي على أساسه تم إنهاء مسيرته الجهادية دون أن يظهر الندم لمحاربته لفرنسا، ولكن الرد كان مخيبًا للآمال لأن مضمونه يقول إن «الجمهورية لا ترى نفسها مقيدة بأي التزام لعبد القادر..»[١٥].

ولما اكتمل عدد المعتقلين من أفراد عائلته وأعوانه نقل الأمير إلى مدينة بو[١٦] نهاية شهر أفريل من نفس العام، حيث شُدّدت عليه الحراسة بعد انتشار شائعات مفادها أن عملاء إنجليز يخططون لتهريبه[١٧]. وفي هذه الأثناء أستدعي لاموريسيار لتولي وزارة الحربية فانتعش أمل الأمير في إطلاق سراحه وأرسل له رسالة يذكّره بوعده ويطلب منه توضيح الغموض السائد لدى الرأي العام الفرنسي حول مسألة تسليمه واستئمانه. وظن الأمير أن الرجل سيفعلها إنقاذا لشرفه الشخصي- وشرف الأمة الفرنسية، ولكن يبدو أنه لم يكن في فرنسا في ذلك الوقت – على الأقل بين من بيدهم مقاليد الحكم- من يعرف للعهد أو الشرف معنىً. ونتيجة اليأس الذي أصاب مرافقي الأمير فكروا في عملية تمرد ضد سجانيهم لكن العملية أجهضت، فتقرر بعدها نقل «المساجين» إلى قلعة أمبواز(Amboise)[١٨] وهي قلعة شديدة التحصين. وأصبحت زيارة الأمير ومن معه لا تتم إلا بترخيص خاص من وزارة الحربية وقد وقّع هذا الأمر(القرار) لاموريسيار نفسه.[١٩]

بعد شهر من وصول الأمير ومرافقيه إلى أمبواز أنتخب الأمير لويس نابليون[٢٠] رئيسا لفرنسا وتمت مناقشة مسألة تحرير الأسير دون الوصول إلى القرار الحاسم. فكتب بيجو إلى الأمير يقترح عليه أن يقبل بالعيش هو وأتباعه في فرنسا مع تمليكم الأراضي والقصور[٢١] وغيرها من المغريات[٢٢]، لكن الأمير رفض كل ذلك، وأصر على تنفيذ الاتفاق الأول. إن هذا الإلحاح من السلطات الفرنسية على تخلي الأمير عن شروطه إنما يعود إلى شعورها بالحرج جراء نكثها للعهد من جهة ورغبتها في تحطيم معنويات الشعب الجزائري ودفعه للاستسلام من جهة أخرى، وهي نفس الغاية التي كانت ترمي إليها جل الكتابات الفرنسية عن الأمير.

مكث الأمير عبد القادر في الأسر ما يقارب الخمس سنوات ذاق فيه مختلف أنواع الإهانات والإذلال، وقد توفي عدد من أقاربه الذين كانوا معه خلال ذلك الوقت جراء المرض و البرد وظروف السجن[٢٣]. لقد حاولت الحكومة الفرنسية تهدئة روع الأمير، فأرسلت اليه بعض الوجوه المألوفة لديه كالجنرال دوماس والقبطان بواسوني[٢٤] وكلاهما كان قد عمل بالجزائر وكانا يتمتعان بتجربة طويلة في التواصل مع العرب[٢٥] بالإضافة إلى معرفتهما للغة العربية[٢٦]. كما رتبت زيارة محمد الشاذلي القسنطيني[٢٧] له وللغرض نفسه على الأقل ظاهريًا (حسب الدكتور سعد الله)[٢٨]. وفي ١٦ اكتوبر ١٨٥٢م وفي طريق عودته من بوردو إلى باريس قام نابليون الثالث بزيارة مفاجئة للأمير، وأبلغه بنفسه[٢٩] قرار إطلاق سراحه، ثم استقبله في باريس وأكرم نزله، وأقام له المآدب الفاخرة ليقابل وزراء ووجهاء فرنسا، «ولم يزل في عز واحترام وجلالة وإعظام. يدور حيث شاء ويجتمع مع الأكابر والعظماء»[٣٠]. وفي الحادي عشر من ديسمبر ١٨٥٢ غادر الأمير فرنسا متجها نحو الشرق.[٣١]

٢-الفتنة الطائفية ١٨٦٠

كانت الاتفاقيّة التي وُقعت بين نابليون الثالث والسلطان العثماني تقضي بإقامة الأمير في مدينة بورسة؛ وأثناء إقامة الأمير فيها تعرضت المدينة في أوت ١٨٥٥ لزلزال عنيف دمر قسمًا كبيرًا. فكانت فرصة الأمير لمفاتحة نابليون والسلطان في شأن تغيير مكان إقامته[٣٢]. فكان له ذلك فانتقل ومرافقيه الى دمشق[٣٣]. في عام ١٨٦٠ وقعت في لبنان وسورية مواجهات عنيفة بين الدروز[٣٤] والموارنة تحولت إلى صدامات بين المسلمين والمسيحيين، والتي تعود جذورها إلى الصراع الذي كان قائما بين الموارنة، الميالين لفرنسا[٣٥]، والدروز المؤيَدين من طرف بريطانيا[٣٦]، وقد استفاد الموارنة من فترة حكم إبراهيم باشا على بلاد الشام الذي سلّحهم وألبهم على الدروز ومكّنهم من الاستيلاء على إقطاعات الزعماء الدروز الذين نفاهم إلى مصر في أواخر أيامه بسورية[٣٧].

كما يُرجِع أغلب المؤرخين أسباب هذه المواجهات إلى صدور ما عُرف بالخط الهمايوني في ١٨٥٦م. وهو نظام قانوني ألغى نظام أهل الذمة السابق. وبموجب القانون الجديد يتساوى المسلم بغيره، ممَّا ولَّد غضبًا

عارمًا لدى المسلمين[٣٨] الذين رأوا في ذلك انتهاكًا صارخًا لقوانين الشريعة الإسلامية، واستغلت هذا التذمر الدول الأوروبية نفسها التي كانت تلعب بمصائر الشعوب من أجل مصالحها الخاصة[٣٩]، وعلى رأس هذه الدول بريطانيا وفرنسا ويندرج هذا التدخل في إطار المنافسة الاقتصادية في المنطقة، وفي إطار إستراتيجيتها الرامية إلى تفكيك (دار الإسلام) سياسيا، ففرنسا كانت وراء الموارنة فيما كانت بريطانيا[٤٠] تحرك الدروز لكي تتصدى لمطامع فرنسا ولكي ترسى هيمنتها[٤١].

وحين أفرزت تلك الفتنة غضبًا عارمًا على المسيحيين في الشام وخارجه وهاجم بعض المسلمين الحي المسيحي في دمشق. قام الأمير عبد القادر- باعتراف العديد من قادة تلك الفترة- بحماية وإنقاذ أكثر من أثني عشر ألف مسيحي احتموا به من غضب جماعات ثائرة[٤٢]، وقد حمل مع أتباعه، الذين بلغ عددهم حوالي ١٢٠٠ رجلا، السلاح من أجل ذلك[٤٣]، وهو ما دفع العديد من ملوك وقادة تلك الفترة ورجال الدين إلى منح الأمير أوسمة شرف عرفانا له بإنقاذ أرواح الآلاف من المسيحيين،[٤٤] ومنهم عدد من رعاياهم بمن فيهم قناصلة روسيا وفرنسا واليونان وأمريكا وقد انتهت تلك الفتنة بالتدخل الأجنبي الفرنسي[٤٥]، «وانهالت المكافآت على الأمير عبد القادر الكبير بعد ذلك وأغدقوا عليه وابلا من التهاني البليغة.. وكان السلطان الخليفة عبد المجيد رحمه الله أول الشاكرين وابلغ المهنئين، وكافأه على عمله المجيد بمنحه الصنف الأكبر من الوسام المجيدي»[٤٦] كما تهاطلت على الأمير الأوسمة والنياشين من عدد كبير من رؤساء الدول الأوروبية، وعلى الخصوص من نابليون الثالث الذي وشحه وسام الشرف الفرنسي الأول، ونتيجة لذلك أخذت تنتشر في أوروبا التآليف التي مجدت الجانب الإنساني للأمير وتسامحه[٤٧].

لقد تصرف الأمير مدفوعا من وازعه الديني والإنساني، كيف لا وهو العالم العارف يدرك تماما أن قتل النفس بغير حق كبيرة من الكبائر وأن هؤلاء المسيحيين هم مستأمنين يعيشون في كنف المجتمع الإسلامي الذي يجب عليه أن يوفر لهم الأمن على أرواحهم وممتلكاتهم، لقد تصرف الأمير حيال هذه الأحداث وهو يدرك قوة الدول المسيحية من جهة وضعف الممالك الإسلامية من جهة أخرى[٤٨]؛ لقد كان تصرف الأمير تعبيرا عن التسامح والتعايش بين الأديان، فهو المسلم الذي قاسى من الفرنسيين المسيحيين، لم يحمل أي حقد أو ضغينة ضدهم، بل سعى إلى إيواء نصارى الشام وحمايتهم[٤٩].

وبهذا العمل الجليل يكون الأمير قد حطم آمال المستعمرين، وخدم الإسلام خدمة مثلى، وقدم للدولة العثمانية معروفًا، وازدادت قيمته التاريخية سموًا وارتفاعًا[٥٠]. كما أنه ساعد على تحقيق الاستقرار في سورية سنة ١٨٦٠، وقلل من فرص التدخل الأوروبي،[٥١] وكبر في أعين قادة الغرب، وكثر محبيه في فرنسا بعد أن كانوا منحصرين في أسراه القدامى.

٣-فكرة إنشاء كيان سياسي مستقل للعرب

لقد كان لأحداث الفتنة الطائفية وتعامل مختلف الأطراف معها أثره البالغ على بلاد الشام حيث سلطت الأضواء عليها، مما جعل بعض الدول الأوروبية تطرح مشاريع للمنطقة، منها إقامة إمارة عربية في بلاد الشام يكون الأمير على رأسها؛ فهو رجل تتوفر فيه شروط الزعامة العربية من نسب شريف، ونضال قومي وغيرة دينية وأصول هاشمية[٥٢]. ومنها أنه تردد في الفترة ما بين ١٨٦٠ و١٨٦٥ وحتى بعد ذلك، تردد على الألسن في فرنسا – وفي إطار حملة سياسية – أطروحات مثل: «عبد القادر عاهل مملكة عربية في المشرق»، «عبد القادر نائب الملك أو حاكم سورية»[٥٣]. وكان ذلك انعكاسًا لمشروع سياسي لتولية الأمير على بلاد الشام ظهر في تلك الفترة وارتبط أساسًا بحوادث الفتنة الطائفية في المنطقة في ١٨٦٠ كما أسلفنا.

لقد ظلت بلاد الشام محط أطماع فرنسية منذ عهد نابليون بونابرت وتعود جذور هذه الأطماع إلى فرانسوا الأول ومعاهدة الامتيازات التي سبق ذكرها؛ وبعد الحركة التي قام بها محمد علي– والذي كان ميالاً لفرنسا- باحتلاله للشام، أرادت هذه الأخيرة أن تقر له بحكم الشام أو تستولي هي عليه[٥٤]. وبعد فشل مشروع محمد علي بسبب معارضة بريطانيا، وضعف موقف الدولة العثمانية نتيجة ملابسات حرب القرم؛ تجددت فكرة مشروع فصل سورية عن الدولة العثمانية في إطار دولة عربية تحت الحماية الفرنسية، وهذه المرة كان وراء المشروع نابليون الثالث.

٤-دوافع المشروع وأهدافه

لا يمكن اعتبار أن وراء المشروع مجرد إحساس نابليون الثالث بالذنب جراء نكث فرنسا لوعودها للأمير غداة إنهائه المقاومة، وكما لا يمكن اعتباره جزءًا من تعويض الأمير عبد القادر عما عناه خلال سنوات سجنه في فرنسا، ولكن كان وراء المشروع دوافع سياسية واقتصادية تتمثل في رغبة فرنسا في تكوين إمبراطورية استعمارية في ما وراء البحار وتعزيز النفوذ الفرنسي- في منطقة المشرق العربي[٥٥] التي ظلت محطة تنافس وتجاذب بين القوى السياسية الأوروبية وكانت إنجلترا من أكبر الطامعين في السيطرة على المنطقة باعتبارها إحدى أهم طرقها إلى مستعمراتها في آسيا وخاصة الهند. بالإضافة - طبعًا- إلى القيمة الإيديولوجية[٥٦] التي بات يحملها نابليون الثالث في فرنسا في حماية الكاثوليك في الشرق بعد الدور الذي لعبه في توحيد إيطاليا[٥٧].

ولا يمكن أن نهمل العامل الشخصي المتعلق بشخص الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث نفسه فقد كان– وهو سليل نابليون بونابرت – يحلم بإنشاء إمبراطورية فرنسية تصل مغرب البلاد العربية بمشرقها[٥٨].

بالإضافة إلى الدوافع السياسية نجد مصالح فرنسا الاقتصادية التي كانت تزداد، خاصة مع بروز نشاط فرديناند دي لِسَبْس[٥٩] في المنطقة، سواء في مشروع قناة السويس أو المَشاريع التي أقامها في الشام وخاصة مشروع الطريق المعبّد بين بيروت ودمشق التي تم إنجازها سنة ١٨٦٢ م وساهمت في تمويله البورجوازية الشامية[٦٠]. وكذلك رغبة فرنسا في السيطرة على زراعة القطن في السهول السورية[٦١].

وكان من المغريات الاقتصادية التي شدت أنظار الدوائر الرأسمالية الغربية هو ازدهار إنتاج وصناعة الحرير[٦٢]، فقبيل عام ١٨٦٠ كانت دمشق تشكل أكبر مركز صناعي لإنتاج الحرير والاتجار به في العالم، وكانت دمشق تواكب آخر التطورات التقنية الصناعية العالمية في ذلك الوقت أي نظام الجاكار[٦٣] الذي كان أول من أدخله إلى دمشق آل بولاد المشهورين بصناعة الحرير البولادية، وذلك بغية زيادة الإنتاج كمًا ونوعًا، واكب ذلك ازدهار تجاري واقتصادي كبير وتوسّع للأسواق، لأن مادة الحرير الخام كانت متوفرة وبأسعار زهيدة بدمشق، مما انعكس على رخص وجودة الإنتاج الدمشقي ما أكسبه شهرة عالمية. وقد ساهم بعملية الازدهار تلك وجود مرفأ صيدا وقربه من دمشق.[٦٤] وتجدر الإشارة إلى أن صناعة الحرير بصفة خاصة والصناعات النسيجية بصفة عامة كانت تتحكم فيها العائلات المسيحية نظرا لعزوف المسلمين عن ممارسة مثل هذه الحرف إذ أنها كانت في نظر بعض المذاهب السنية حرف دنيئة مثلها مثل الصياغة والجزارة والدباغة وغيرها[٦٥]. ويضاف إلى هذه الدوافع: الرغبة في السيطرة على سوق الجواد السوري نظرا لأهمية الجياد في البنية العسكرية الأوروبية (سلاح الفرسان)[٦٦].

إذن تضافرت عوامل سياسية واقتصادية وأخرى شخصية لتدفع بنابليون الثالث والفرنسيين للتفكير جديا بمشروع تكوين إمبراطورية جديدة في المشرق يكون على رأسها الأمير عبد القادر وتكون هي الحل للمسألة الشرقية التي تسببت في كثير من الحروب وإراقة الدماء.[٦٧]

بل ذهب البعض إلى تحديد معالم وخصائص هذه المملكة أو الإمبراطورية فهي تشمل بلاد العرب في المشرق باستثناء مصر وهي بالضبط المناطق التي كانت آنذاك مازالت خاضعة للدولة العثمانية وقد قُدِّر عدد سكانها ما بين ١٠ و١٢ مليون نسمة. وتضمن هذه الدولة الحقوق المدنية والسياسية لكل مكوناته البشرية وتستمد قوانينها المدنية من القانون النابوليوني [الفرنسي] وتعتمد النظام المتري الفرنسي-، ويكون الفصل فيها بين السلطتين الروحية والزمنية بعاصمتين السياسة في بغداد والروحية في مكة[٦٨].

٥-مواقف مختلف الأطراف من المشروع

لقد سبق وأشرنا إلى أن فكرة المشروع قديمة، وهي فكرة فرنسية أصلا، وبطبيعة الحال فلم تكن فرنسا تهدف من وراءه سوى خدمة لمصالحها، حتى ولو كان ذلك يتطلب تفكيك الدولة العثمانية. وما دام الأمر يتعلق بتفكيك هذه الدولة الشرقية ووراثة ممتلكاتها فهذا لا يعني فرنسا وحدها فقط بل يعني أطرافا أخرى وعلى رأسها بريطانيا.

وقبل التطرق إلى مواقف الأطراف المعنية بهذه المسألة فلا بد أن نشير إلى انه بالقدر الذي برز فيه -داخل فرنسا- تيار قوي يؤيد الطرح ويتحمس له[٦٩]، فإنه كان من الفرنسيين من يتوجس من الأمير، فنجد المترجم «بولاد»

يكتب عنه تقريرا مطولا في أوت ١٨٥٧، يحذر فيه الحكومة الفرنسية من المبالغة في الطمأنينة إلى موقف الأمير، و«يتهم» الأمير بأنه يرغب في بعث «الشعور القومي العربي الفعال». كما تشير تقارير أخرى إلى عدم إخلاص الجزائريين[٧٠]. وهكذا فإن فرنسا نفسها كانت منقسمة حيال المشروع، ولعل هذا هو أحد أسباب فشل المشروع في النهاية.

أما عن بريطانيا فكانت تنتهج سياسة المحافظة على الدولة العثمانية، والوقوف في وجه أي محاولة لتفكيكها سواء جاءت من روسيا أو من محمد علي (الميّال لفرنسا) أو من فرنسا نفسها. فمثلا كانت بريطانيا تعارض مشروع قناة السويس وتشكك في نجاحه؛ ولما تم المشروع ونجح، استطاعت بعبقرية ساستها أن تسرق المشروع كله من فرنسا عندما أقدمت على شراء أسهم الخديوي في الشركة، وبذلك مهدت الطريق للسيطرة على مصر وفرض نظام الحماية عليها في ١٨٨٢. وكانت الحكومة البريطانية قد غيرت نظرتها للأمير بعد أسره، فكانت ترى فيه مجرد صديق لفرنسا بل ذهب القنصل البريطاني في دمشق إلى اعتبار تفاقم الفتنة ناتج عن تواطؤ «لانوس»[٧١] وعبد القادر[٧٢].

والواقع أن بريطانيا كانت على استعداد لإتمام صفقة مع فرنسا دون المساس بمبادئ سياستها في المنطقة وخاصة تجاه الدولة العثمانية – على الأقل حتى مؤتمر برلين ١٨٧٨- وهذا يعكس سياستها القائمة على البراغماتية والتي عبر عنها فيما بعد مهندس سياستها الاستعمارية دزرائيلي[٧٣]: «ليس هناك أعداء دائمون وليس هناك أصدقاء دائمون وإنما هناك مصالح دائمة»[٧٤]. وقد جرت محادثات بين باريس ولندن في مسألة الخيار بين المرشحين المحتملين لولاية سورية، فؤاد باشا والأمير فكانت بريطانيا تميل إلى المرشح الأول فؤاد باشا[٧٥].

وبالنسبة لروسيا فإنها كانت من أشد المتحمسين لتفكيك الدولة العثمانية، وكان قيصرها «نيقولا الأول» هو من أطلق عليها تسمية الرجل المريض، وباستثناء رغبتها في الإبقاء على إدارتها للأماكن المقدسة في فلسطين، لم تكن لها مطامع إقليمية في البلاد العربية وإنما كانت أطماعها في المناطق العثمانية المتاخمة لحدودها هذا فضلا عن حلمها القديم الجديد في السيطرة على المضايق والوصول إلى المياه الدافئة وخاصة البحر المتوسط. ولذا فالمشروع لم يكن يعنيها بشكل مباشر.

٦-موقف الأمير من المشروع الفرنسي

عندما سئل الأمير هل سمع عما تكتبه الصحافة الفرنسية عن ترشحه لحكم سورية ردَّ قائلا: «نعم وإن لم أكن مخطأ فهذا هو أحد الأسباب الرئيسية لما يبديه الأتراك من غيظ تجاهي وتنكيد لي. إنني أنهيت مسيرتي السياسية ولا أطمح إلى سلطان على البشر...»[٧٦]. هذه واحدة من الكتابات التي تحدثت عن موقف الأمير من المقترحات الفرنسية، ويمكن اعتبار أن جلها لم تعبر بوضوح عن رد الأمير الصريح (القبول أو الرفض). ولكن نابليون الثالث أراد أن يعرف موقف الأمير ومدى استعداده للعب دور سياسي من جديد، فكلف الجنرال فليري[٧٧] بهذه المهمة، فطلب هذا الأخير من إسماعيل أوروبان[٧٨]-الذي كان مستشارا للإمبراطور في الشؤون العربية- سبر موقف الأمير من مسألة تكوين مملكة عربية مستقلة في سورية يكون هو على رأسها[٧٩]، فكان الرد: «... الرفض القطعي والجازم حسب قول إسماعيل أوروبان...»[٨٠].

والواقع أن الأمير كان حَذِرًا في مواقفه كلها، ولم يكن يريد أن يصبح لعبة في يَد فرنسا أو أن يؤدي دور الدمية[٨١]. وفي اعتقادنا هناك عدة عوامل جعلته يفكر كثيرا في قبول المشروع؛ أولها: كيف يمكن له أن يصبح حاكما في وطن المنفى من جديد بعد أن وضع السلاح وتعهد بأن لا يعود لمقاومة من سلبوا منه صولجان الحكم في وطنه ومسقط رأسه؛ ولطالما عبر عن زهده في الدنيا وابتعاده عن السياسة. وثانيها: هو توجسه من العثمانيين الذين كانوا يراقبونه ويخشونه. وثالثها: وهو أن الأمير كان يدرك أبعاد وخبايا سياسة الدول الأوروبية والتي كانت كلها تهدف إلى تفكيك الدولة العثمانية والانقضاض على ممتلكاتها[٨٢]؛ وما كان للأمير أن يسهم في تفكيك الدولة العلية ولعل موقفه هذا ناشئ عن احترامه لمبدأ الخلافة الإسلاميّة. وهناك عامل آخر أراه من الأسباب التي دفعت الأمير إلى رفض المشروع وهو أن قطاعا لا يستهان به من الدمشقيين لم يهضموا موقف الأمير من الفتنة حتى أنه هوجم لفظيا من طرف بعض الرعاع

حسب ما ورد في احدى مراسلات الديبلوماسيين البريطانيين[٨٣]، بل ذهبت بعض الكتابات الفرنسية إلى اعتبار أن سكان المدن السورية وخاصة دمشق أصبحوا يكنون الضغينة والكراهية للأمير لأنه حال بينهم وبين النصارى[٨٤]. ولا ننسى أن الرأي العام الفرنسي كان أيضا منقسما حول المسألة أي أن الأمير كان يدرك عدم حصول إجماع حول الموضوع.

٧-مآل المشروع

لقد رأينا أن المشروع الفرنسي ارتبط أساسا بشخصين هما الإمبراطور نابليون الثالث صاحب فكرته وأكثر المتحمسين له، وبشخص الأمير عبد القادر نفسه «الأداة» المفترضة لهذا المشروع. فالأمير رفض المشروع كما مر معنا، ولم يتحقق مشروع الدولة العربية المستقلة عن الدولة العثمانية، فشل لعوامل عديدة منها أن المشروع في حد ذاته كان يمثل تناقضات السياسة الفرنسية[٨٥]، فهي من جهة احتلت الجزائر وحاربت الأمير وحالت بينه وبين تكوين دولة مستقلة ومن جهة أخرى تقترح عليه ولاية سورية. لقد تهرب الأمير من المشروع سنة ١٨٦٠ عندما عرض عليه لأول مرة ورفضه نهائيا سنة ١٨٦٥ وبهذا الرفض يكون الأمير قد وضع حدا للسياسة العربية لنابليون الثالث لأن الأمير كان «الأداة» الوحيدة والممكنة لذلك[٨٦]، ثم أن الإمبراطور نفسه فقد الحكم في فرنسا بعد هزيمته وأسره على يد الألمان في ١٨٧٠، ولم تتمكن فرنسا من تحقيق هذا الطموح لكون المنطقة بكاملها سرقت منها فيما بعد، نظرا لاكتساح السياسة البريطانية للمنطقة وتفوق اللاعب البريطاني، الذي قدم مشروعا آخرا تمثل في مشروع الثورة العربية بقيادة الشريف حسين[٨٧]. وقد ضمت الثورة العربية في صفوف قيادتها أحد أحفاد الأمير عبد القادر وهو الأمير عبد القادر بن علي الذي حاول تجسيد حلم الدولة العربية القومية المستقلة دون جدوى[٨٨].

٨-نقد المشروع

إن المتتبع لمسار علاقات القوى الأوروبية - بما في ذلك فرنسا - مع الدولة العثمانية يلحظ أنها كانت مبنية على المصالح المختلفة لهذه القوى، فالصراع الذي نشب بين الطرفين على مدى قرون كان يحركه عاملان، عامل تاريخي وآخر اقتصادي، فالعامل التاريخي يتمثل في الصراع الحضاري بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي سواء كان تحت مسمى مباشر كالحروب الصليبية أو تحت مسمى مقنع كالمسألة الشرقية، ولم يخف الأوروبيون رغبتهم في القضاء على الإسلام ونشر المسيحية. فالفرنسيون اعتبروا احتلالهم للجزائر استمرارا للحروب الصليبية[٨٩].

والمشروع الفرنسي لتولية الأمير على بلاد الشام لا يخرج عن هذا الإطار وهو احتلال وتقسيم ما تبقى من ممتلكات الدولة الإسلامية؛ وحتى مشروع المملكة العربية (في الجزائر) لم ينجح وما كان له أن ينجح بسبب عدم وضوح سياسة نابليون الثالث والداعين إلى المشروع، وعدم تعاون الحكام العامين للجزائر، وكذلك عدم قدرة نابليون على كبح جموح غلاة المعمرين[٩٠]؛ فقد كان دعاة المملكة العربية يرون فيها وسيلة لإخضاع الجزائريين بأقل الخسائر؛ فنابليون الثالث يمكن وصفه بالطامح الكبير الذي اصطدم بصخرة الواقع.

وإذا كان نابليون الثالث قد فشل في مشروع المملكة العربية الذي كانت قاعدته أرض الجزائر وهي بيده، فكيف له أن ينجح في مشروع على أرض مازالت بيد أصحابها، وهي محط أنظار قوى أوروبية أخرى، كانت ترى أن الأمير هو صديق لفرنسا وهو ليس المرشح الوحيد لمشروع كهذا[٩١]. وما كان لهذا المشروع أن ينجح في ظل غياب أهم طرفيه، ونقصد بذلك (العاهل) المفترض[٩٢] للمملكة (المشروع)، وصاحبة الأرض والشأن وهي الدولة العثمانية. فالأمير عبد القادر لم يسع إلى الحكم بعد أن اضطر إلى إنهاء مقاومته في الجزائر، ولم يبد لا الرغبة ولا الاستعداد للعب دور سياسي في إطار هذا المشروع. وقد بادرت الصحافة الفرنسية وما عرف بالـ(حزب القادري) إلى الدعاية للمشروع وترشيح الأمير، له دون استشارته أو معرفة رأيه فيه. كما أن الدولة العثمانية لم يعرض عليها المشروع بالرغم من أنه لم يكن مشروعا سريا وكانت ستقاوم تنفيذه بكل الطرق، وهذا طبعا لو قبله الأمير خاصة وأنه يتعلق بأهم الولايات العثمانية -أي ولاية الشام- وهي أهم آخر ما تبقى لها من سلطة مباشرة على البلاد العربية.

ولو كانت فرنسا فعلاً صادقة في أقوالها وفي ظاهر سياستها لبادرت إلى تنفيذ مشروع المملكة العربية عندما

وضعت يدها على سورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى؛ فبعد أن تمكنت- هي وبريطانيا- من تقسيم الدولة العثمانية وسلخ البلاد العربية عنها، راحت تمعن في التفتيت فقد «كانت باكورة أعمال الجنرال غورو[٩٣] إحداث دولة لبنان الكبير ثم تأسيس دولة العلويين، بموجب قرارين بتاريخ ٢١ آب [أوت] ١٩٢٠، ثم تلا ذلك إقامة دولة دمشق فدولة حلب وتبعها إقامة دولة الدروز بتاريخ ٤ آذار [مارس] ١٩٢١.»[٩٤].

خَاتِمَةٌ

لقد كون الأمير عبد القادر علاقات واسعة مع معاصريه من ملوك وقادة ورجال سياسة وعلم وأدب، وتبادل معهم الرسائل والتهاني والهدايا؛ وطبعا فيهم الكثير من الفرنسيين، ولعل أشهر هؤلاء نابليون الثالث. بيد أن علاقته مع الفرنسيين لم تكن بالصفة التي روَّج لها الفرنسيون أنفسهم، فهي لا تعدو أن تكون علاقات شخصية مع أفراد، وعلى رأسهم طبعا نابليون الثالث. فالأمير تأثر كثيرا بسلوك نابليون النبيل، فكان هذا الإحسان والكرم الإمبراطوري بمثابة طوق في عنق الأمير وقيد في يديه، فقد ظل الأمير وفيا للكلمة التي أعطاها للإمبراطور غداة إطلاق سراحه. ويصدق في وصف هذه العلاقة قول الشاعر أبي الفتح البُستي:

أَحْسِنْ إِلَى النَاس تَسْتَعْبِدْ قُلُوبَهَمُ
فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنسانَ إِحْسَانُ

ولقد حاول نابليون الثالث أن يستغل هذه الصداقة ليحقق طموحاته الشخصية والأطماع التوسعية للاستعمار الفرنسي. لكن الأمير رفض أن يكون مطية لذلك.

ساهم الأمير عبد القادر في تنبيه العرب والمسلمين إلى ما كان الاستعمار يحيكه من مؤامرات بزرع الفتن بينهم وسعيه لتمزيق وحدتهم وبسط نفوذه على بلادهم، وتفطن إلى دسائسه؛ لذا نجده يتهرب وبلباقة من العرض الذي اقترحه عليه نابليون الثالث لإمارة الشام تحت المظلة الفرنسية.

لقد عُرفَ عن الأمير بساطته وزهده الشديدان ولم يسع للرياسة سواء في الجزائر أو في المهجر. لقد كان للتجربة التي خاضها مجاهدا في الجزائر وعاناها أسيرا في فرنسا، كان لكل هذا الأثر البالغ في بقية حياته فقد كان يرغب في أن يقضي بقية حياته في العبادة والدرس؛ وهذا ما حذا بالمؤرخ الفرنسي برونو إتيين ليُعَنْوِن أحد مباحث كتابه حول الأمير بـ«مملكتي ليست من هذا العالم».

إنّ موقف الأمير من الدولة العثمانية كان موقفًا مسؤولاً، فهو على الرغم من إدراكه لقوة الدول المتربصة بها من جهة، ومدى الضعف الذي وصلت إليه دولة الخلافة من جهة ثانية؛ فإنه لم يشأ أن يدق مسمارا في نعشها. فهو ظل وفيا لمبادئه في الولاء لخليفة المسلمين والحفاظ على وحدتهم؛ وهذا ما يفسر- رفضه في النهاية للمشروع الفرنسي.

الاحالات المرجعية:

(١) يحيى بوعزيز، **سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية ١٨٣٠-١٩٥٤**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٧.

(٢) مصطفى هشماوي، **جذور نوفمبر ١٩٥٤ في الجزائر**، دار هومة، الجزائر، ٢٠١٠، ص ١٣.

(٣) حسان صبحي، **الأمير عبد القادر وتاريخ الوحدة الوطنية الجزائرية**، مجلة أخبار معسكر ع خاص بمناسبة الذكرى ١١٩ لوفاة الأمير عبد القادر، جوان ٢٠٠٢.

(٤) **برتراند الكونت كلوزيل** (Clauzel) قائد عسكري فرنسي ولد في ١٢ ديسمبر ١٧٧٢، عين قائدا عاما للجيش الفرنسي في الجزائر خلفا لدي بورمون في ١٨٣١. استدعي لفرنسا حيث رقي إلى مارشال ثم عين حاكما عاما للجزائر. كان من أشد المدافعين عن فكرة الاحتفاظ بالجزائر نهائيا فارتكب أبشع الجرائم، توفي سنة ١٨٤٢. انظر:

Faucon Narcisse, Le livre d'Or de l'Algérie, Challamel et Cie Éditeurs, Librairie Algérienne et Coloniale, Paris, 1889, pp.157-160.

(٥) **توماس روبير بيجو دولا بيكونيري** (١٧٨١-١٨٤٩) المعروف بالمارشال بيجو (Bugeaud) الملقب بدوق إسلي، حارب في بروسيا وبولندا وإسبانيا ثم أبعد عن الخدمة سنة ١٨١٥ من طرف آل بوربون فانكفأ إلى ضيعته واشتغل بالزراعة إلى غاية ١٨٣٠ حيث عاد إلى معترك السياسة ودخل البرلمان. وفي سنة ١٨٣٦ عين قائدا لمنطقة وهران بمهمتين هما محاربة الأمير والتفاوض معه، خاض ضده عدة معارك انتصر في بعضها (الصكاك) وانهزم في البعض الآخر، وتوجت المفاوضات بإبرام معاهدة التافنة (١٨٣٧)، ثم استدعي لفرنسا ليعود إلى الجزائر سنة ١٨٤٠ حاكما عاما. عزل عن منصبه في ١٩٤٨، ومات بوباء الكوليرا في ١٠ جوان ١٨٤٩ بفرنسا. انظر: Narcisse, op.cit., pp.128-130.

(٦) سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٠٠-١٩٣٠)**، ج٢، ط٤، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢، ص ٤٦.

(٧) **لاموريسيار**: Christophe-Louis-Léon de) La Moricière Juchault) (١٨٠٠-١٨٦٥) جنرال فرنسي شارك في الحملة الفرنسية على الجزائر، عين على رأس فرقة الزواوة العاملة في جيش الاحتلال الفرنسي عرف عنه تقربه من القبائل العربية لاستمالتهم وكان يحسن العربية. عمل تحت قيادة بيجو. حارب الأمير وفاوضه على شروط التسليم. انظر:

Narcisse, op.cit., pp.355-362.

(٨) **طولون**: (Toulon) مدينة جنوب شرق باريس على بعد ٨٤٠ كلم قاعدة بحرية وتجارية على ضفة البحر المتوسط. انظر:

Georges Lucas et al. Petit Larousse en couleurs, librairie Larousse, édition 1986, paris, septembre 1985, p.1603.

(٩) محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، ج٢، الإسكندرية، ١٩٠٣، ص٥.

(١٠) محمد بن عبد القادر، المصدر نفسه، ص ٦.

(١١) السيد الحاج مصطفى بن أحمد بن التهامي ولد سنه ١٧٩٦. كان أحد المقربين من الأمير وصهرا له، رافقه بالسجن بفرنسا ثم رحل معه إلى المشرق. انظر: الأمير عبد القادر، مذكرات الأمير عبد القادر سيرة ذاتية كتبها في السجن سنة ١٨٤٩، تح محمد الصغير بناني وآخرون، دار الأمة، ١٩٩٥، ص ١٦٦(هـ).

(12) Alexander Bellemare, Abd-el-kader sa vie politique et militaire, Librairie de L. Hachette et Cie , Paris, 1863, p. 349.

(١٣) **إيميل أوليفي** (Emile Ollivier) كان من المدافعين عن إطلاق سراح الأمير وبعث بهذا الشأن رسالة إلى الحكومة المؤقتة. انظر:

Marie d'Aire (née Boissonnet), Abd-el-Kader : quelques documents nouveaux lus et approuvés par l'officier en mission auprès de l'émir, Imprimerie Yvert & Tellier, Amiens, France, 1900, p.75.

(١٤) محمد بن عبد القادر، مصدر سابق، ص ٩.

(١٥) شارل هنري تشرشل، **حياة الأمير عبد القادر**، تر أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٤، ص٢٥٦.

(١٦) بو: (Pau) مدينة تقع على نهر بو. ٧٥١ كلم إلى الجنوب الغربي من باريس. بها قصور تعود للقرنين الثالث عشر والخامس عشر. انظر: Lucas et al., op.cit, p.1471.

(١٧) تشرشل مصدر سابق، ص ٢٥٧.

(١٨) مدينة فرنسية في منطقة وسط فرنسا تقع إلى الجنوب من باريس على نهر اللوار اشتهرت بقصورها التي تعود إلى عصر النهضة. انظر: Lucas et al., op.cit, p.1016.

(١٩) Bellemare, op.cit., p. 370.

(٢٠) **لويس نابليون بونابرت** (١٨٠٨-١٨٧٣)، إمبراطور الفرنسيين (١٨٥٢-١٨٧٠) قضى صباه وشبابه في سويسرا وإيطاليا. حاول مرتين (١٨٣٦ و١٨٤٠) المناداة بنفسه إمبراطوراً على فرنسا، ففشل وحكم عليه بالسجن مدى الحياة ١٨٤٠، ولكنه تمكن من الفرار إلى إنجلترا. ثم عاد إلى فرنسا عقب اندلاع ثورة فبراير ١٨٤٨، وانتخب عضواً في الجمعية الوطنية، ثم رئيساً للجمهورية الثانية (ديسمبر ١٨٤٨). وسع سلطاته تدريجياً. وفي نوفمبر ١٨٥٢ أُعلن إمبراطورا بعد استفتاء شعبي. اتسم حكمه بالدكتاتورية، عرف بالمغامرات الاستعمارية مثل الاستيلاء على منطقة كوشنشين الفيتنامية، وإرساله حملة إلى المكسيك (١٨٦١ - ١٨٦٦) في محاولته إنشاء إمبراطورية مكسيكية تدور في فلك فرنسا. واشتركت فرنسا في عهده في حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦). ساعد الايطاليين في حربهم ضد النمسا وحصل مقابل ذلك على سافوا ونيس. انهزم جيشه أمام بسمارك فاستسلم له فثارت باريس وخلعه الثوار فتوجه إلى بريطانيا حيث توفي هناك في ١٨٧٣. انظر:

Lucas et al., op.cit, p.1432.

(٢١) عبد الباقي مفتاح، **لمحات من تصوف الأمير عبد القادر**، مجلة أخبار معسكر، مرجع سابق.

(٢٢) لمزيد من التفاصيل عن محتوى الرسالة انظر: تشرشل، مصدر سابق، ص ٢٦٣-٢٦٤.

Bellemare, op.cit., p. 373.

(٢٣) سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٥، دار البصائر، الجزائر، (د ت) ص ٥٣٢.

(٢٤) **بواسوني**: (Boissonnet Laurant Estève) بارون من عائلة أرستقراطية ولد في باريس في: (١٩ جوان ١٨١١م)، أصبح ضابطًا في المدفعية، وتولى في قسنطينة شؤون المكتب العربي وإدارة الشؤون الأهلية من سنة ١٨٤٣ إلى سنة ١٩٤٨. كسب صداقة كثير من أعيان الجزائر منهم محمد الشاذلي القسنطيني والأمير عبد القادر، بدأ حياته العملية سنة ١٨٤٨م بكتابة أشعار الأمير وتنظيماته العسكرية، كان عارفًا باللغة العربية ولهذا رشح من طرف الدوق دومال لمرافقة الأمير إلى فرنسا وكذلك بعدها للمشرق. انظر: سعد الله، **محمد الشاذلي القسنطيني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، ص ٢٠.

François Pouillon, Dictionnaire des orientalistes de و- langue française, éditions IISMM-Karthala, 2008, p.119.

(٢٥) يزعم بليمار -بكل ثقة- أن سلوك الأمير تجاه نصارى الشام في فتنة الستين إنما جاء نتيجة تأثير بواسوني ودوماس عليه اثناء سجنه بفرنسا! ونسي أن المسلمين قد تعايشوا قرونا مع النصارى قبل أن يعرفوا الفرنجة، كما تجاهل معاملة الأمير للأسرى الفرنسيين أثناء مقاومته للاحتلال. انظر: Bellemare, op.cit., p. 349.

(26) ibid.

(٢٧) محمد بن الحاج محمد بن ابراهيم الصولي (١٨٠٧-١٨٧٧) الشهير بالشاذلي القسنطيني أديب وفقيه جزائري نشأ في قسنطينة وبها درس الفقه والحديث واللغة والحساب. شهد دخول الفرنسيين للمدينة. وبعد استقرارهم بها عين قاضيا مالكيا سافر عدة مرات إلى أوروبا وآنس في إحداها الأمير عبد القادر في سجنه بأمبواز (١٨٤٩-١٨٥٠). انظر: سعد الله، **محمد الشاذلي القسنطيني**، مرجع سابق، ص ١٥-٢١.

(٢٨) نفسه، ص ٣٤.

(29) Civray Eugène de (Cte) - Napoléon III et Abd-el-Kader, Charlemagne et Witiking, étude historique et politique, Biographie de l'émir, P. Martinon, libraire-éditeur, Paris, 1853,p.321.

(٣٠) عبد الرزاق البيطار، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، ج٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٣، ص٨٩٣.

(٣١) تشرشل، مصدر سابق، ص ٢٧١.

(٣٢) تشرشل، المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٣٣) محمد بن عبد القادر، مصدر سابق، ص ٦٥.

(٣٤) بعض المفكرين وعلماء الدين السنة لا يعتبرون الدروز من المسلمين ولا يقتصر الأمر على المسلمين بل حتى بعض الغربيين يرون ذلك فمثلا نجد عالم الآثار الفرنسي فرانسوا لينورمان (Lenormant François) الذي كلف بكتابة تقرير عن حوادث الستين-لأنه كان من أوائل الأوروبيين الذين وصلوا إلى المنطقة بمجرد تناقل أخبار الحوادث- نجده يصف الدروز بأنهم شعب غير مسلم: انظر:

François Lenormant. Histoire des massacres de Syrie en 1860. Hachette. Paris 1861.p.VII.

(٣٥) يعتبر الموارنة أكثر الطوائف الشرقية تأثرا بفرنسا «فهم -حسب لينورمان- فرنسيون حقيقيون بالقلب»: انظر:

Lenormant ibid., p. XIV.

وانظر أيضًا: - نسيم نوفل، كتاب بطل لبنان الشهير الطائر الصيت المرحوم يوسف بك كرم، المطبعة الوطنية بالإسكندرية، ١٨٩٦، ص٢١٥.

(٣٦) كانت بريطانيا تمارس الحماية للدروز، فمنها أنها توسطت لدى الباب العالي لمنع مدحت باشا من تأديبهم بسبب القلاقل التي تسببوا فيها في فترة ولايته على الشام، انظر: محمد عوض عبد العزيز، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤-١٩١٤م)**، رسالة ماجستير في الآداب، جامعة عين شمس، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩، ص ٢٩١.

(٣٧) ياسين سويد، **فرنسا والموارنة ولبنان**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٢، ص ١٤.

(٣٨) إسماعيل ياغي، **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض،١٩٩٦، ص157.

(٣٩) سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج٥، دار البصائر، الجزائر، (د ت)، ص ٥٣٧، ٥٣٨.

(٤٠) لقد جرت مناقشة في مجلس العموم الانجليزي بتاريخ ١٧ أوت ١٨٦٠ أتهم فيها بعض النواب ومنهم المستر مونسل الحكومة البريطانية بالوقوف وراء الفتنة الطائفية في لبنان. لمزيد من التفصيل حول المسألة انظر:

- فيليب وفريد الخازن (تع)، **مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سورية ولبنان من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٩١٠**، الجلد [كذا] الثاني من كانون الثاني سنة ١٨٦٠ إلى تشرين الأول منها، مطبعة الصبر، جونية، لبنان، ١٩١١، ص ٢٨٨-٢٩١.

(41) Hamza Benaissa, L'Emir Abdelkader et la franc maçonnerie, El maarifa éditions, Alger, p.19.

(٤٢) تضاربت أرقام عدد الضحايا فهي ٢١٩٠٠ شخص حسب بعض الكتابات الكاثوليكية و١١٥٠٠ حسب المصادر العثمانية انظر:

Ageron, Abd el-Kader souverain d'un royaume arabe d'Orient, In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°8, 1970, unica, p. 16.

(43) Annuaire des deux mondes: histoire générale des divers états, 1860 (T10), 1er juillet 1861 ,Paris, p.530.

(٤٤) ناصر الدين سعيدوني، **عصر الأمير عبد القادر الجزائري**، مؤسسة جائزة عبد العزيز البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٠، ص١٧٥، ١٧٦.

(٤٥) يورد الأستاذ سهيل الخالدي قصة مفادها أن الأمير عبد القادر توجه إلى بلدة رياق على الحدود اللبنانية السورية وقابل الجنرال الفرنسي ومنعه من الدخول بقواته إلى سورية. انظر: -سهيل الخالدي، توضيحات لألان كريستلو في مقاله «من الأمير عبد القادر ١٨٦٠ إلى الأخضر الإبراهيمي ٢٠١٢»، جريدة الشروق الجزائرية، ع ٣٧٨٧، ٢٦ سبتمبر ٢٠١٢.

(٤٦) أحمد توفيق المدني، **الأمير عبد القادر الجزائري وحوادث سورية المحزنة، والدولة العثمانية**، مجلة التاريخ ع خاص بمناسبة الذكرى الـ١٠٠ لوفاة الأمير عبد القادر، النصف الأول من سنة ١٩٨٣، ص٨.

(47) Ageron, op.cit., p.18.

(48) Ageron, Idem.

(٤٩) عبد القادر بوعرفة وآخرون، **تبر الخواطر في فكر الأمير عبد القادر**، دار القدس العربي، الجزائر، ٢٠١٠، ص٣٢.

(٥٠) المدني، مقال سابق، ص ٧.

(٥١) ألان كريستلو، **الجزائريون والأزمة السورية من الأمير عبد القادر (١٨٦٠) إلى الأخضر الإبراهيمي (٢٠١٢)**، تر أبو القاسم سعد الله، جريدة الشروق الجزائرية، ع ٣٧٧٧، ١٦ سبتمبر ٢٠١٢.

(٥٢) سعد الله، **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، ط١، الجزائر ٢٠٠٣، ص ١٢٩.

(٥٣) Ageron, op.cit., p.15.

(٥٤) جرانت وتمبرلي مرجع سابق، ص ٣٥٣.

(٥٥) يعود هذا النفوذ إلى اتفاقية الامتيازات بين سليمان القانوني وفرانسوا الأول (١٥٣٥م).

(٥٦) من ذلك أن الشاعر المعروف «لامارتين» وقف في مجلس النواب الفرنسي- وكان في ذلك الوقت عضواً فيه - يقول» إنه من الأولى لفرنسا أن تفكر في إقامة دولة مسيحية على منابع الأردن شاملة لجبل لبنان بشرط أن تكون القدس عاصمتها..». انظر: -محمد حسنين هيكل، **المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل**، ط١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦، ص٥١.

(٥٧) منجد طلال، «**جذور ومقومات التدخل الدولي في لبنان: حالة سنة ١٨٦٠**»، جريدة التمدن، طرابلس، لبنان، العدد: ١٢٤٦، ٢٠/٥/٢٠١٠.

(٥٨) يورد عبد الجليل التميمي نقلاً عن: (André Martel) تفكير نابليون الثالث في إمكانية ضم تونس وطرابلس إلى الجزائر وتكوين مملكة عربية. وإذا أضفنا إلى هذا التصور مشروع المملكة العربية في سورية تبقى مصر نظريا هي الفاصل بين المملكتين لكنها عمليا هي همزة وصل بينهما لأن أسرة محمد علي تعتبر حليفة تقليدية لفرنسا. راجع:

Abdeljelil Temini, Recherches et documents d'histoire maghrébine, In: Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, N°12, 1972. pp. 160,161.

(٥٩) دي لِسَبْس فرديناند ماري، فيكونت: (De Lesseps, Ferdinand) (١٨٠٥-١٨٩٤) دبلوماسي فرنسيومهندس، صمم مشروع قناة السويس ونفذه في ١٨٦٩، وهو صاحب مشروع خليج قابس الذي جنَّد له الأمير ليعلن موافقته علنا، كما أنه حاول شق قناة بنما ولكن المشروع تخللته أزمات، واتُهم دي لِسَبْس بالاختلاس وسجن ثم خففت التهمة إلى الإهمال. انظر: نصار وآخرون، م٣، مرجع سابق، ص ١٥٦١.

(٦٠) إتيين، مرجع سابق ص ٣١٠.

(٦١) منجد، **جذور ومقومات التدخل الدولي في لبنان**، مقال سابق.

(٦٢) إتيين برونو، **عبد القادر الجزائري**، تر ميشيل خوري، ط١، دار عطية للنشر، بيروت، دمشق، ١٩٩٧، ص٣١٢.

(٦٣) نسبة إلى المخترع جوزيف ماري جاكار Joseph Marie Jacquard(1752-18341)- ميكانيكي فرنسي، ولد في ليون، اخترع نول جاكار الذي يحمل اسمه. من: Lucas et al., op.cit., p.1315.

(٦٤) إلياس بولاد، **حوادث ١٨٦٠ في لبنان ودمشق فتنة دينية أم مؤامرة سياسية غربية**، مجلة النور، ع ٢٣٩ ٢٩/٣/٢٠٠٦، دمشق.

(٦٥) ليلى الصباغ، **الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني**، جم وتق عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية خلال العهد العثماني، زغوان، ١٩٨٦، ص ١٠٧.

(٦٦) منجد، **جذور ومقومات التدخل الدولي في لبنان**، مقال سابق.

(67) Ageron. op.cit. p.20.

(68) Ibid. p.20.

(٦٩) كان من بين المؤيدين للفكرة المهندس دي لِسَبْس صاحب مشروع قناة السويس وكان من أصدقاء الأمير. انظر:

- Jean-Louis Marcot, Abd el-Kader et la modernité, Studia Islamica, nouvelle édition/new series, 2, 2011, pp. 193-195.

(٧٠) إتيين، مرجع سابق، ص ٣٠٩، ٣١٥، ٣٢٨.

(٧١) لانوس هو القنصل الفرنسي في دمشق وقتئذ.

(٧٢) إتيين، نفسه، ص325.

(٧٣) **بن يامين دزرائيلي** (Benjamin Disraeli) (١٨٠٤-١٨٨١) سياسي ورجل دولة بريطاني من أصل يهودي دخل البرلمان كنائب عن حزب المحافظين سنة ١٨٣٧.عين رئيسا للوزراء في ١٨٦٨ وفيما بين ١٨٧٤ و١٨٨٠. عرف بسياسته المحافظة واندفاعه الاستعماري، تمكن -بدعم من آل روتشيلد- من شراء أسهم الخديوي إسماعيل في شركة قناة السويس، مما مهد الطريق للسيطرة على مصر، وقف بحزم تجاه الأطماع الروسية في البلقان. توفي بلندن عام ١٨٨١. انظر: عبد الوهاب الكيلاني، **موسوعة السياسة**، ج٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٠، ص٧٣٩-٧٤٠.

(٧٤) فضيلة دفوس، **العلاقات الإيرانية-الإسرائيلية من شهر العسل إلى الطلاق البائن**، جريدة الشعب الجزائرية، ع١٥٧٣٣، ٢٩ فيفري ٢٠١٢.

(٧٥) إتيين: مرجع سابق، ص ٣٢٣.

(76) Poujoulat, op.cit. pp.444, 445.

وإتيين، مرجع سابق، ص ٣٢٣.

(٧٧) Émile Félix Fleury جنرال فرنسي (١٨١٥-١٨٨٤) كان من المقربين من نابليون الثالث وكان كبير سائسي خيله. عضو مجلس الشيوخ في ١٨٦٥. كلف بمهام دبلوماسية آخرها سفيرا للإمبراطورية لدى روسيا. من:

F. Choisel نقلاً عن: http://www.napoleontrois.fr in Dictionnaire du Second Empire. Fayard, 1995

(٧٨) كان اسمه توماس أوروبان (Thomas Urbain) ولكن غيره إلى إسماعيل بعد أن أعتنق الإسلام وتزوج عربية وأصبح من أنصار «الجزائر للجزائريين» ونشر كتابا بهذا العنوان، وكان مترجما للدوق دومال، ثم أصبح مترجما لنابليون الثالث، ويقال إنه أثر عليه في سياسته نحو الجزائر تأثيرا كبيرا. انظر: - سعد الله، **محمد الشاذلي القسنطيني**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، ص ٣٩.

(79) Bruno Étienne, «Les projets d'un «royaume arabe» au Bilâd al-Shâm: histoire d'un malentendu entre la France et l'émir Abd el-Kader», in Pierre-Jean Luizard, Le choc colonial et l'islam, Les politiques religieuses des puissances coloniales en terres d'islam, La Découverte, Paris,2006, p. 469-483.

(٨٠) Ageron, op.cit., P.29.

(٨١) Benaissa, op cit. p.52., Alger

(٨٢) محمد الشريف ساحلي، **الأمير عبد القادر فارس الإيمان**، تر محمد محمد يحياتن، منشورات ANEP، الجزائر، ٢٠٠٨، ص ٣٦.

(٨٣) الخازن، مصدر سابق، ص ٣٠٠.

(٨٤) انظر: Poujoulat, op.cit.P. 429. و Ageron, op.cit., P.24. والواقع أن مثل هذه الاستنتاجات تدخل في إطار سياسة دأب عليها الكثير من الكتاب الأوروبيين للتفرقة بين العرب والأتراك من جهة، وبين المسلمين والنصارى من جهة أخرى؛ فالذين قاموا بالاعتداء على نصارى دمشق هم دروز قدموا من خارج المدينة مع بعض رعاعها.

(85) Ageron, op.cit., p.30.

(86) Idem. P.29. Ageron

(٨٧) **الحسين بن علي (الشريف)** (١٨٥٤-١٩٣١) ملك الحجاز ومؤسس الأسرة الهاشمية وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين. نفي إلى إسطنبول حيث عين في مجلس الشورى، عين أميرا لمكة خلفا لعمه، توترت علاقته مع الأتراك إبان حكم الاتحاديين، حاول القوميون العرب في سورية استمالته كما كاتبه البريطانيون ووعدوه بدولة عربية إن هو ثار على الأتراك، فأعلن الثورة العربية الكبرى التي حررت بلاد الحجاز وبلاد الشام والعراق من الدولة العثمانية لكن البريطانيين حنثوا بوعدهم. فقد نفوذه بالجزيرة لصالح ابن السعود. - انظر: الكيلاني، مرجع سابق، ص ٥٤١-٥٤٢.

(٨٨) ألان كريستلو، مقال سابق.

(٨٩) سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية (١٩٠٠-١٩٣٠)**، ج١، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٣٣.

(٩٠) سعد الله، **الحركة الوطنية**، ج٢، مرجع سابق، ص٢٥.

(٩١) طرحت بريطانيا فؤاد باشا كمرشح لولاية الشام. انظر: -إتيين، مرجع سابق، ص ٣٢٨،٣٢٧.

(٩٢) يذكر إتيين انه كان يتم تدارس مستقبل سورية في أعقاب حوادث الستين من خلال مراسلات وتقارير الديبلوماسيين والعسكريين الفرنسيين في المنطقة ولم يبلغ الأمير بالأمر مطلقا. انظر: -إتيين، مرجع سابق، ص ٣٣٢.

(٩٣) **هنري أوجين** (Henri Eugène Gouraud) (١٨٦٧-١٩٤٦) جنرال فرنسي ولد وتوفي في باريس، أتجه إلى السلك الاستعماري فعمل في مالي والمغرب. كان قائدا للجيش الرابع في حملة الدردنيل جرح وبترت ذراعه اليمنى. عين مفوضًا ساميًا في سورية من ١٩١٩ إلى ١٩٢٣، وجه إنذارًا إلى فيصل ولم ينتظر الرد وزحف على دمشق واحتلها بعد تغلبه على يوسف العظمة في ميسلون. انظر: - الكيلاني، مرجع سابق، ص ٣٧٧.

(٩٤) أحمد معاذ الخطيب الحسني، **دور السياسة الدولية في إثارة النعرات الطائفية والوعي الإسلامي تجاهها**، بحث مقدم لنيل درجة الدبلوم في العلوم السياسية والعلاقات الدولية، الأكاديمية السورية الدولية، ٢٠١٠، (غ م)، ص ٣.